كتاب الجليس والأنيس

للمعافى بن زكرياء النهرواني

تمهيد

قبل أكثر من سبعين سنة أي في سنة ١٨٨١ م نشر وليام رايت (William Wright) كتاب الكامل للمبرد في كمبريج ، ومن ذاك التاريخ أظهر الاختصاصيون اهتمامهم بهذا الكتاب ، ورغماً عما كان لهذا الكتاب من قيمة كبيرة في أوربا كان له قيمة أكبر في العالم الاسلامي القديم ، وكان يُعدّ المبرد صاحب مدرسة البصرة في عهده كما كان زميله في ذلك الوقت ثعلب صاحب مدرسة الكوفة ، إن هذا الكتاب يُعدّ بدون مبالغة من أهمّ الكتب الأدبية التي أُخرجت في القرن الثالث الهجري . وقد ظهر بعض الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم انتقاد هذا الكتاب ومن جملتهم كان القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء بن يحيى بن حميد بن حماد بن داوود الطرارا الجريري النهرواني[1] ، لقد توفي المبرد في سنة ٢٨٥ وأما المعافى فقد ولد سنة ٣٠٥ وتوفي سنة ٣٩٠ وهذا يعني أن المعافى توفي بعد مائة سنة تقريباً من وفاة مؤلف الكامل .

ولد المعافى في إحدى قرى كورة النهروان وكان لمدة ما نائباً لقاضي باب الطاق الواقعة شرق مدينة بغداد ، وكان منذ طفولته يميل الى الشرع الإسلامي وتفقه به وأصبح فقيهاً كبيراً يشار اليه بالبنان .

---

(١) انظر بروكلمان (C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur) الطبعة الثانية ١ : ١٩٥ وتكملته ١ : ٣١٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان يدعى الجريري نسبةً الى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري مؤسس المذهب الجريري ، ومما يجب ذكره أن زميله في ذاك الوقت ابن النديم أتى على ذكره في كتاب الفهرست في فصل مذهب الطبري وأتباعه[1] ، ويعدد ابن النديم ثمانية عشر مؤلفاً للمعافى ، ويضيف أن المعافى نفسه ذكر له أنه صنّف أكثر من خمسين مؤلفاً في الفقه والأصول والنحو وغيرها ، ومن بين الكتب التي عدّدها ابن النديم ما هو في اللغة وما هو في التفسير ، وينتهي الى امتداح كتاب الجليس الذي أتحدّث عنه .

إن العنوان الكامل لهذا الكتاب القديم الغني الذي نعنى بنشره هو « كتاب الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي » والكتاب مقسم الى مائة مجلس يُقرأ مجلس منها في كل اجتماع ، وكثيراً ما يبدأ المجلس بحديث نبوي تليه شروح لغوية وتفسيرات معنوية يُستخدم فيها بعض القصص التاريخي النافع أو الحكايات المسلّية أو القطع الشعرية .

نسخ المخطوطة ووصف النسخة الأصلية

وقبل أن نتحدث عن مادة الكتاب نحاول أن نتعرّف ، بايجاز ، الى النسخ المختلفة للمخطوطة ثم الى مصادر الكتاب .

لقد كان للأستاذ ريتر (Hellmut Ritter) الفضل في أنه دلّني على المخطوطة الأصلية ، أعني نسخة سراي احمد ٣/٢٣٢١ في استانبول ، ولم يذكر الأستاذ بروكلمان هذه النسخة في كتابه تاريخ الأدب العربي وإنما وصفها الأستاذ ريتر في Oriens ٢ : ٢٧٩ — ٢٨٢ ، وهي في ٢٥١ ورقة ومكتوبة بخط نسخي جميل وهي المخطوطة الوحيدة التي تقدّم لنا النص الكامل للكتاب ، وتاريخ نسخها يعود الى ٢٩ شوال من سنة ٦٢٩ .

(١) راجع كتاب الفهرست لابن النديم ١ : ٢٣٦ ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما النسخ الأخرى التي عرفتها لهذا الكتاب فليست كاملةً وإنما تتضمن بعض الأجزاء أو المجالس ، ومن بينها نسخ أهميتها ترجع الى قدمها .

وأما نسخة سراي أحمد ، التي ستكون أساساً في نشر الكتاب ، فقوبلت على نسخ أخرى مقابلة كاملة من أولها الى آخرها ، ويشير الى ذلك تاريخ المقابلة الوارد في آخر الكتاب وهو ١٠ جمادى الآخرة من سنة ٦٨٤ أعني بعد ٥٥ سنة من كتابة المخطوطة ، وقد قام بالمقابلة عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن احمد بن الصابوني الشيباني السلامي الفوطي [1] الذي ظلّ قيّم المكتبة المستنصرية ببغداد حتى وفاته .

وعلى النسخة ختم السلطان بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح .

وهناك أشياء كثيرة مما يمكن أن نقوله في وصف هذه المخطوطة ، وسنذكره في مقدمة الطبعة ، كما أننا سنتحقق ، عن طريق كتاب المعافى نفسه ، من كل الذي كتبه عنه مترجموه وما كتبه ابن النديم بوجه خاص .

شيوخ المعافى

وقد كان للمعافى عدد من الشيوخ ، وكتب التراجم تذكر أشهرهم ، كالبغوي ويحيى بن محمد بن صاعد من المحدثين ، ونفطويه اللغوي الكوفي ، وهناك عدد آخر من شيوخه أقلّ شهرة من هؤلاء ، غير أننا يجب أن نضيف الى هذه الأسماء أسماء أخرى يطلعنا عليها كتاب الجليس نفسه ، فاذا استعرضنا المجالس العشرة الأولى مثلاً وجدنا أكثر من أربعين شيخاً يروي عنهم المعافى ، ومن بين هؤلاء الأربعين لا تحتلّ الأسماء السابقة المكان الأول وإنما تحتلّ مكاناً ثانوياً .

---

(١) بروكلمان تكملة ٢٣ : ٢٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والشيخ الذي يتردد اسمه في أكثر المرات هو اللغوي الكوفي ابن الأنباري ، ثم اللغوي البصري ابن دريد ، ويليهما الحسين الكوكبي وهو غير ذي شهرة واسعة [١] ، ثم الصولي ، ثم زكرياء والد المعافى الذي نعرفه بابنه [٢] .

وكذلك نجد من شيوخ المعافى أبا جعفر أعني الطبري شيخ المذهب الجريري ، ويظهر أن المعافى اتصل به منذ طفولته لأن الطبري مات سنة ٣١٠ والمعافى ولد سنة ٣٠٣ أو ٣٠٥ ، وبين الحين والحين يذكر المعافى تفسير الطبري تحت اسم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (ق ١٣ (و)) .

الشعراء الذين استشهد بشعرهم

إن الشعراء الذين ذكرهم المعافى في هذه المجالس العشرة الأولى واستمدّ منهم شواهده على تفسيراته اللغوية يبلغون سبعين شاعراً ، وهم موزعون على كل العصور : العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام والعصر الأموي والعباسي ، وأكثر من ذكرهم الأعشى وامرؤ القيس وحاتم الطائي وجرير وذو الرمة وأبو العتاهية وابن الرومي ، ولا يسمي المعافى الشاعر الذي يستشهد باسمه في أغلب الأحيان وإنما يكتفي باستعمال الجملة المعروفة «وقال الشاعر» ...

ويبدو من استعراض أسماء هؤلاء الشعراء السبعين أنه لا يفضل شاعراً من عصر على شاعر من عصر آخر وأنه يستخدم شعراء العصور المختلفة على السواء في الاستشهاد .

ويبدو المعافى من خلال هذه المجالس شاعراً ولكنه ليس بالشاعر الفحل ، والأبيات التي هنا أكثر عدداً من الأبيات التي تطلعنا عليها كتب التراجم .

(١) بروكلمان تكملة ٣ : ١٣١٥ .

(٢) نسخة استانبول ق ١٤ (ظ) و ١٧ (و) و ٦٨ (و) و ١٤٦ (ظ) و ٢١١ (و) و ٢٤١ (و) وغيره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مؤلفات المعافى

ومن خلال الاشارات المقتضبة في هذه المجالس نستطيع أن نضيف جديداً الى قائمة المصنفات التي ذكرها ابن النديم والتي أشرنا اليها في مطلع هذه المقالة .

إن المعافى يشير الى طائفة من كتبه الفقهية بتعابير أو بجمل عامة كقوله « فيما ألفنا من كتب الفقه » . مثال ذلك أنه يتحدث عن المصلّي خلال الصلاة هل يجب أن يقطع صلاته إذا سئل فقال « القول في هذا النحو مستقصى فيما ألفناه من كتبنا في الفقه » (ق ٦ (و) من نسخة استانبول) ، وفي موضع آخر يضع المعافى أمامنا التعبير التالي : « من كتبنا في فرائض المواريث » (ق ١٨ (و)) .

أما عن كتبه في المسائل النحوية واللغوية فالمعافى يشير الى شرحه مختصر أبي عمر الجرمي[1] (الفهرست يسميه خطأً « شرح كتاب الحزمي ») ، كما يشير الى « رسالة مفردة مستقصاة » في تصريف فعْل شَكَرَ متعدّياً الى المفعول (شكره) أو متعدياً بحرف الجر (شكر له) .

إن هذه الكتب التي تحدّثنا عنها هي الكتب التي صنّفها المعافى ، غير أننا نلمح من خلال دراسة كتاب الجليس أن هنالك مجموعة كتب كان ينوي أن يصنفها في التفسير بوجه خاص ، ولما كان المعافى مسنًّا حين صنف كتاب الجليس - إذ كان بلغ الثمانين - فنحن نرجح أنه لم يستطع أن يكتب هذه الكتب التي بشر بها أو تحدث عنها .

وهو لا يحدد أسماء هذه الكتب التي بشر بها وإنما يتحدث عنها بتعابير عامة كقوله « كتبنا في القرآن » (ق ٦ (ظ)) و « في علوم القرآن »

---

(١) ق ١٣ (و) وانظر معجم البلدان لياقوت نشر وستنفلد (Wuestenfeld) ١ : ٨٩٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ق ٧ (و) و ٧ (ظ)) و «في علوم تنزيل القرآن وتأويله» (ق ١٣ (و)) ، إلا أن هنالك مؤلَّفاً يشير اليه دائماً ويذكر اسمه الواضح هو «البيان الموجز عن علوم القرآن المعجز» (ق ٣ (ظ) و ٤ (ظ) و ١٣ (و) و ٢١ (ظ)) ، ومن الممكن أن نفترض أن أكثر مؤلفاته القرآنية التي يتحدث عنها بالصيغ العامة المبهمة هي نفس كتاب البيان الموجز .

والمعافى يتكلم عن كتابين في القراءات ويتحدث عنهما بلفظ «في القراءات» أو «في علل القراءات وتفصيل وجوهها» (ق ٤ (ظ)) ، ويبدو مقبولاً أنهما لم يُكتبا كذلك ، بينما يُظن أنه كتب كتاباً «في القراءات وعلوم القرآن على الشرح والبيان» (ق ٢٣ (و)) ، إن ابن النديم لا يتحدث إلا عن «كتاب في تأويل القرآن» .

مادة الكتاب

لكي نتعرف الى مادة الكتاب يجب أن نتوقف عند مقدمته ، وهي مقدمة ذات أهمية بالغة لأن المؤلف يعرّفنا فيها بهدف الكتاب ويصوّر لنا هيكله المجمل :

«فلاح لي أن أنشئ كتاباً أضمّنه أنواعاً من الجد الذي يستفاد ويُعتمد عليه ومن الهزل في أثنائه ما يسرّ استماعه ويستراح اليه ، فإنّ اختلاف الأنواع يسهّل النظر فيها وينشّط الوقوف عليها ويوفر الاستماع بها ، وأن أضمنه علوماً غزيرة وآداباً كثيرة وأجعله مجالس موزعة على الأيام والليالي ولم أشترط فيه مبلغاً من العدد محصوراً ولا قدراً من المجالس محظوراً» .

ومن الغريب أننا نجد نفس الأفكار ونفس التعابير عند المبرد الذي يقول في مطلع الباب ٤٦ من كتاب الكامل[1] :

(١) الكامل ص ٤٠٩ نشر رايت (Wright) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون فيه استراحة للقارئ وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس » .

ومن مقارنة هذين النصّين نلاحظ أن المؤلفين معاً يجعلان شرط كتابهما الاستراحة والاستطراف وتجنّب الملل والإتعاب .

ويمضي المعافى في المقدمة فيذكر لنا أسماء مؤلفات مماثلة لكتابه فيعدد كتاب « الجواهر » و « زاد المسافر » و « الزهرة » و « أُنس الوحدة » ، وتعجبه هذه الأسماء وتروقه على أنها عناوين كتب بينما لا يروقه ولا يعجبه عنوان كتاب المبرد : الكامل ، فهو بعد أن يمتدح بعض فضائله ينقده بعنف ويذكر أنه لا يجد فيه شيئاً من الكمال ويقول عنه أنه لا يستحق العنوان الذي أعطاه إياه المبرد .

ثم ينقد المعافى بشكل أكثر اعتدالاً الصولي الذي روى عنه بعض الأحاديث ويتكلم عن كتابه « الأنواع » الذي لا نعرف عنه إلا اسمه الذي ورد في خزانة الأدب [1] ، ويقول عنه إن هذا الكتاب حسن التقسيم ولكنه لا يعالج موضوعه معالجةً عميقة ، ثم يتكلم عن كتاب آخر للصولي مجهول تماماً واسمه كتاب « النوادر » .

ثم يعود الى ذكر كتابه فيقول عنه :

« وضمنته كثيراً من محاسن الكلام وجواهره ومُلحه ونوادره وذكرت فيه أصولاً من العلم أتبعتها شرح ما يتشعب منها ويتصل بها بحسب ما يحضر في الحال ، مما يؤمن معه الملال ، ومن وقف على ما أتيت به من هذا علم أن كتابنا أحق بأن يوصف بالكمال » .

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويوجه هذا اللوم الى « كامل » المبرد لنقص الأسانيد فيه ، وليس المعافى وحده هو الذي لاحظ على المبرد حذف الأسانيد ، وإنما هناك آخرون اتجهوا الى نفس الملاحظة كما نجد عند ياقوت في « إرشاد الأريب » حيث تطالعنا كلمة لنفطويه : « ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وابي العباس ابن الفرات » [1] .

ويجب القول بأن المعافى يذكر كل خبر بإسناده ويذكر تاريخ الإسناد أحياناً ، ومن النظر في هذه التواريخ نلاحظ أنها تمتد بين سنة ٣١٤ — ٣٢٩ ، وإذن فالمعافى استمد مواد كتابه مما حفظه أو تعلمه وهو صغير بين سن التاسعة وسن الرابعة والعشرين .

وسيكون من محاولتنا أن ندرس كتاب الجليس وأن نعرف الى أي حد كان المعافى أميناً على هذا المنهج الذي تحدث عنه في المقدمة ، وليس في وسعنا أن نحلل الكتاب كله ولذلك سنكتفي بالنظر في مجلس واحد ، دون تعيين ، وليكن المجلس الرابع .

المجلس الرابع

يبدأ المجلس برواية حديث عن عائشة :

« حدثنا أحمد بن اسحق بن بهلول إملاءً في يوم الاثنين لخمس ليال بقين من شعبان سنة ست عشرة وثلثمائة قال حدثنا أبي عن أبيه عن أبي شيبة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من الشعر حكما وإن أصدق بيت تكلمت به العرب قول الشاعر : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ » .

(١) ارشاد الأريب نشر مارجوليوث (Margoliouth) ٧ : ١٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يأخذ المعافى بالشرح فيذكر اسم الشاعر والشطر الثاني من البيت والبيت الذي يليه :

« قال القاضي أبو الفرج (يعني المعافى) : هذا البيت الذي حكاه النبي صلى الله عليه وسلم عن قائله من الشعراء هو للبيد بن ربيعة افتتح به كلمة فقال في أولها :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وبعده :

وكلُّ أُناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيهيةٌ تصفرُّ منها الأنامل » .

ثم يروى عن عثمان أنه « لما سمع قوله : وكل نعيم لا محالة زائلُ ، قال : كذب ، نعيم أهل الجنة لا يزول » .

ويعلق على رأي عثمان بقوله : « وهذا القول من عثمان يدلّ على أن مذهب القوم في العموم هو جارٍ في لغتهم على الشمول عند تجرّده واستغراق الجنس بإطلاق لفظه » .

ويقف عند كلمة « دويهية » الواردة في بيت لبيد فيقول : « وأما قول لبيد في البيت الآخر دويهية على التصغير ، فمن الناس من يقول : هو تصغيرٌ معناه التكبير ، وجعله مثبتو الأضداد في اللغة من الأضداد ، وقال بعضهم : بل هو على تصغيره وإنما أُريد به أنه إذا كان التصغير منه يبلغ هذا المبلغ ويؤثر هذا الأثر فكبيره أعظم وأبلغ » .

وهذا التناقض بين شكل الكلمة « تصغير » ومعناها « تكبير » يدعو المعافي الى الاهتمام بالمسألة وإبداء رأيه الخاص في صيغ التصغير ودلالتها فيقول :

« ولي في هذا مذهب استخرجته بنظري وما علمتُ أحداً سبقني اليه ولا تقدّمني فيه ولكن الله الذي يؤتي الحكمة من يشاء نبهني اليه ، وهو أن الاسم المصغّر إنما قصد به الدلالة على صغر ذاته وقلة أجزائه <١> وتعلّقه بجزءٍ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يسير في نفسه ؛ فأما الصغير في ذاته وقلة أجزائه فكالحُجَيرة الصغيرة التي ليست حُجرة كبيرة ، وأما المتعلق بشيء يسير فكقولك : أتيتك قُبَيْلَ العصر أو بُعَيْدَ الفجر ، فبُني <على> أن المتقدم من الزمان في قولك قُبَيْلَ يسيرٌ قليلٌ والمتأخر منه في قولك بُعَيْدَ قصيرٌ ليس بطويل ، ونحو هذا قُدَيْدِيمَة ووُرَيْئَة في قُدّامَ ووراء يجري الأمر فيه من جهة الأمكنة مجراه فيما قدّمناه من باب الأزمنة كما قال الشاعر :

قديديمةُ التجريبِ والحِلْم أنني أرى غَفَلاتِ العيشِ قبلَ التجاربِ

فظنّ من قال : إن التصغير في هذا الباب تكبير لما رأى ، أن القصد من قائله الإشمار بأمر عظيم وخطب كبير جسيم ، ولو تأمل هذا الظانّ الأمر في هذا لبان له أن الصغير على صغره ، فانه نتج كبيراً أو أدى اليه عظيماً في نفعه أو ضرره ، وكل واحدٍ من الأمرين على حقيقته في نفسه وخصوصيته في جنسه ، فالدويهية ههنا صغيرة جرَّت أمراً كبيراً » .

ويستمرّ المعافى على هذه الفكرة الأخيرة بقوله : « كما قال :

رُبَّ كبيرٍ هاجه صغيرُ وفي البحورِ تَغرَقُ البحورُ

وقول القائل من المُحْدَثين :

لا تحقرنَّ سُبَيْبا كم جرَّ أمراً سُبيبُ

ثم يمضي المعافى فينقل لنا أن بعض الذين استمعوا الى رأيه هذا انتقدوه فيورد الانتقاد ويردّ عليه ويقول :

« وكان بعض من يتعاطى الأدب ويدأب في طلب المعاني واستنباط لطيفها سمع مني معنى ما ذكرته في هذا الفصل بعد أن طعن على من قدّمتُ الحكاية عنه في هذا الباب وقال : كيف يكون الصغير كبيراً ؟ وإذا جاز هذا جاء منه أن يصح قول من قال : الداء هو الدواء ، والسقم هو الشفاء ، وهذا مما عبرت عن معناه بلفظي دون لفظ المتكلم به ، لأنني لم أصمد لحفظه ولأنه كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

غير بليغ في نفسه ولا مستقيم في ترتيبه ، فحكيت معناه بلفظ لم آلُ في إيضاحه وتهذيبه . وقال هذا القائل : إن الذي اجتبيته في هذا غير مخالف للقول الثاني الذي قدّمت حكايته عن قائله . فكان من جوابي لهذا القائل أنْ قلتُ له : إن الفرق بين قولي وقول من رغبت عن قوله ونسبتني الى موافقته أن هذا الذي حكيت قوله يزعم أن الصغير المذكور اذا جرّ الى ضرر فكبيره أبلغ في الضرر منه ، وأنا ذهبت الى أن هذا الصغير يؤثر تأثيراً كبيراً من حيث كان جنسه يؤثر نفعاً أو ضرّاً بكيفيته دون كميته ، وضربت لهذا المخاطب مثلاً قرّبتُ به هذا الفصل عليه لما بعد عنه إدراكه إذ كان الفرق بين هذين القولين لطيفاً جدّاً وكان بينهما من بعض الوجوه تناسب وشبه وتقارب ، فقلت له لمّا كان من الأشياء ما يكون عند قليل أجزائه منفعة جسيمه أو مضرّة عظيمة كالدرياق والسم بولغ في العبارة عن المنافع بها لاشتهار هذا المعنى لقول الحباب بن المنذر : أنا جُذَيلها المحكّك وعُذَيقها المرجّب ، وفي الاخبار عن الجنس الضارّ قول لبيد :

دويهية تصفرُّ منها الأنامل » .

ويلخص رأيه ورأي معارضيه بقوله :

« وجملة الفصل بين قولي وقول من خالفته وتوهمت أني وافقته أنه عنى بالكمية وعنيت بالكيفيه ، وقد يكون من الأشياء ما يؤثر قليله وينتفي تأثيره عن كبيره ، كالحرورا والحُباب والصُرَد والقِرْقِس والبَعوض من الجنس الواحد ، وكنوع من الحيات ذوات الأجسام اللطيفة وعظيم ضررها وقصور الحية الكبيرة المسماة الحُفَّاث في ذلك عنها وإن كانت أعظم خلقاً وأشنع منظراً ، وقد قال أهل العلم بصناعة الطب إن السقمونيا يُنتفع بتناول مقدار منه يسير ذكروه ويقاربه في النفع والضرّ ما قاربه من الأجزاء في المبلغ والقدر ، وإنه اذا بلغ من الكثرة مقداراً متفاوتاً لم يضرر كبير ضرر ولم يظهر في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخذه ما يظهر بتناول قليله من الأثر في نفع ولا ضرر . ولقد حدثني بعض متفقهي القضاة أن قوماً دسّوا شيئاً كثيراً من السقمونيا في بعض المطاعم الحلوة لرجل كانوا يعاشرونه وكان معروفاً بكثرة الأكل وإنه أكل جميعه وانصرف عنهم ، فندموا على ما كان منهم وأشفقوا على هذا الرجل وعملوا على الفحص عن أمره واستعلام خبره ، فجاءهم يتأوه ويقول لهم : أيّ شيء أطعمتموني ؟ فقد عرض لي قولنج برّح بي . وأما قول هذا المخاطب لي : كيف يكون الداءُ دواءً والسقمُ شفاءً ؟ فإن هذا قد يوجد معنىً ويُستعمل لفظاً ، وقد ظهر لعامة الناس وخاصتهم أن الداء المسمى خماراً العارض عن الشراب المسكر يشفي منه شرب شيء مما تولّد الخمار عنه » .

ثم يتابع المعافى في هذا الطريق فيستشهد بطائفةٍ من الشعر ، ويذكر بعض حكايات ، ويورد طائفةً من الأقوال الشائعة عند العرب كقولهم : رُبَّ محنة حدثتْ عن لحظة ، وربَّ حربٍ جُنيتْ من لفظة ، والقليل الى القليل كثير ، والذَّوْد الى الذود إبل ، وقد يملأُ القطر الإناء فيفعم ، وغيره . ويكون في بعض ما يقوله : « واستقصاء هذا الباب وما يضاهيه ويتشعب منه يطول ولا يليق بهذا المجلس الزيادة عليه » .

ولا ينسى المعافى وهو يردّد بعض الأبيات من شعر أبي نواس والأعشى أن يذكر بعض أبياتٍ من نظمه :

« وكنت في الحداثة أنشأت كلمة مسمطة على نحو قصيدة مُدْرِك الشيباني في عمرو النصراني ، فكان مما ذكرته في كلمتي هذه عند صفة عين إنسان نعتّه ونسبت الكلمة به :

صُقْمٌ أرى أحسنَ عينٍ تطرِفُ تَقوَى به والقلوب تُضْعِفُ
كالسمّ في الأفعى يَبقي ويحتفُ تحيا به والنفوس تُتلفُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم قلت :

دواءُ من أقصده بسُقمهِ تكراره نحو مرامي سَهمِهِ
كالأفعوان يُشتفى من سمِّهِ بشرب درياق كريه طعمهِ

وقلت أيضاً من كلمة :

وشفائي بسُقم مقلة ظبيٍ قدّ قلبي منه بأحسن قدٍّ
سقمُها لي شفاءُ دائي إذا جا دَتْ وداءٌ إذا تصدَّت لصدِّ

وأنا أستغفر الله من مساكنة ما يشغل عن عبادته » .

وفي نهاية المجلس يحرص المعافى على أن يذكر بعض الحكايات والقصص المسلية التي يختلط فيها النثر بالشعر والطرافة بالتأثير ، فمن ذلك الحكاية التالية :

« حدثنا محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرنا أبو معاذ خلف بن أحمد المؤدب عن ابن اسحق الزيادي قال حدثني رجل من العرب قال : كان بيننا وبين قوم حربٌ فلقونا فهزمناهم ، فاذا فتىً منهم قد صبر لنا فجعل لا يحمل على ناحيةٍ من عسكرنا إلا كشفها وهزمها ، ثم احتولناه بأرماحنا فأشفقنا عليه فعرضنا عليه الأمان فقال :

أذُلُّ الحياةِ وذُلُّ المماتِ وكُلاًّ أراه طعاماً وَبيلا
فإنْ كان لا بدَّ من واحدٍ فسيري الى الموتِ سَيْراً جَميلا

ثم حملنا عليه فقتلناه فإذا هي امرأةٌ »(١) .

* * *

لقد تحدثنا عن المجلس الرابع الذي بدأ برواية الحديث وتفسيره وانتهى الى شعر وقصص وحكاياتٍ مسلّية ، والملاحظ أن المؤلف يضيع نظام البحث كما نفهمه الآن ويحكمه الاستطراد ، فتفسير كلمة في بيت من الشعر يدعوه الى الاستشهاد ببيت جديد أو الى ذكر الأبيات المماثلة وهكذا .

(١) انظر الأغاني (بولاق ١٢٨٥) ٤ : ٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إننا لا نستطيع أن ننكر أن الأفكار تتوالد أحياناً الأولى من الأخرى بطريق سببيّ أعني أن فكرةً تسبب فكرة . وفي دراسة مثل هذه الكتب الأدبية القديمة يجب أن ندع جانباً الطريقة الأوربية المعاصرة التي تجعل الموضوع مركزاً تدور حوله الحوادث أو فكرة محدّدة تتمركز حولها الأفكار الثانوية الأخرى ، ذلك لأننا هنا أمام تآليف من نوع آخر ، وفي كتاب أدبي مثل كتاب الجليس يستطيع القاريء أن يجد كلّ الأشياء الممكنة مصفوفة بعضها الى جانب بعض لا على طريقة التركيز والترابط الفكري .

ويستحق أن نلاحظ أن الحكايات الصغيرة التي يوردها المعافى في خلال المجلس أو في نهايته تستخدم لناحيتين : لتطويل بعض المجالس القصيرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإنهاء المجلس بأثر نفسيّ طيب بعد المناقشات اللغوية المتعبة ، وبصورة عامة نستطيع ـ بالمقارنة مع كتاب الكامل ـ أن نقول أن كتاب الجليس مرتب باتجاه أكثر قاعدية وقسوة من كتاب الكامل .

ولا يبدو المعافى تابعاً لمدرسة لغوية معينة فهو يتنقل بين مدرسة البصرة وبين مدرسة الكوفة .

وكتاب المعافى نافع في الدراسات التاريخية لأن أكثر القصص والشعر في هذا الكتاب تعود الى العصر الأموي وهو عصر ليس غنياً بالمصادر القديمة ، وفي هذه الناحية التاريخية يظهر الحجاج بن يوسف هو الشخصية التي يهتمّ بها المعافى ، ولكن يجب القول هنا أنه في كتاب الجليس ليست الحوادث التاريخية الواقعية ولا التأريخ الواقعي المحض هو الذي نجده فيه ، وإنما نجد معلومات تاريخية ، والمسألة هي : الى أيّ حدّ نستطيع أن نعتبر هذه المعلومات التاريخية وقائع معينة متطابقة مع الحقيقة ؟ [1] .

(١) انظر H. Ritter في Oriens ٢ : ٢٧٩ و ٢٨٠ و J. Sauvaget , Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman ص ٣٩ — ٤٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد وصفنا كتاب الجليس في أول المقال بأنه كتاب أدب غني قديم ، وأظن أن هذا التعريف يجعلنا نعتقد بأن هذه الأوصاف ليست مبالغة . والغريب أن كتاب المعافى لا يُذكر إلا قليلاً وبحكم النادر في كتب الأدب العربي بينما هو لا يقلّ عن كتاب الكامل للمبرد حجماً وفائدةً وطرافةً ، وأخيراً نجد قصص كتاب المعافى مذكورة غالباً في « مصارع العشاق » للسراج [1] ، ويُذكر المعافى عالماً بالشعر ونحوياً في « تأريخ دمشق » لابن عساكر [2] ، ويجري ذكره في « تأريخ بغداد » للخطيب البغدادي [3] ، وفي كتب التأريخ المؤلفة على أساس السنين وفي كتب التراجم وكتب الأنساب .

والمعافى أحد رجال المذهب الجريري ، وذلك يفسر لنا لِمَ أهمل ، فكأنه انطفأ مع انطفاء المذهب ، وليس هو وحده الذي أهمل بل أهملت معه مؤلفاته الفقهية وبقية كتبه الأدبية .

الدكتور ألبرت ديتريش

---

(١) مصارع العشاق للسراج (طبعة استانبول ١٣٠١) ص ٣١٠ و ٣١٤ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٣٩ و ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٩ وغيرها .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٢٠ و ٤٤١ و ٥ : ٦٥ و ٢٤١ وغيرها .

(٣) تأريخ بغداد للخطيب ٨ : ٢٤٩ و ١٣ : ٢٣٠ وغيرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net